مشكلة يهودية في الوطن العربي سواء في القرن التاسع عشر او في اوائل القرن العشرين ، ولم يكن هنالك مسألة يهودية في المجتمع الهندي ولم يكن هناك مسألة يهودية في افريقيا . واننا نفترض ان هناك مسألة يهودية وهي بحاجة الى دراسة عالمية من منظور عالمي ، اعتقد أن هذا خطأ أصيل ، ربما تكون قد اوجدته الحركة الصهيونية وربما تعاون معها بقية العلماء الاوروبيين فأثاروا هذا الموضوع على انه مشكلة « عالمية » لا بد وان تعالج عالميا . والصحيح هو أنه كان هناك مشاكل او مسائل الاقليات القومية ، والدينية ، واللغوية في مجتمع أوروبي قبل مبدأي العلمانية والقومية كأسس للمواطنة الصحيحة .

وموضوع المسألة اليهودية،بغض النظر عن من طرح هذا الموضوع ، مرتبط بوجود « اليهودية » ووجود « الامة » اليهودية التي شكلت الركيزة الاساسية للحركة الصهيونية.بمعنى آخر ان الحركة الصهيونية نشأت كحل من الحلول المختلفة لمعالجة مشكلة تواجد «الامة» اليهودية في مكان غير الذي تواجدت فيه . علينا ان نناقش هذا الافتراض الاصلي في الحركة الصهيونية والذي يصر على ان هنالك شيئا اسمه « الامة » اليهودية والذي يفترض ان لهذه الامة المقومات الرئيسية للامم الاخرى ما عدا البقعة الجغرافية . وعلينا في هذه الحالة ان نناقش تلك الروابط التي تجمع بين اليهودي الاميركي واليهودي الافريقي ، او بين اليهودي الروسي واليهودي العربي . في نظري ان الصهيونية نجحت في ايهام الكثيرين من الناس بوحدة هذه « الامة » . ولكن هذا لا يعني انه يتوجب علينا ان نسلم بوجود هذه الروابط « القومية » بل علينا ان نتقصى الاسباب الحقيقية التي أدت بالصهيونية الى استغلال روابط معينة بين فئات من الاوروبيين لتحقيق اهدافها السياسية والجغرافية . كذلك لو نظرنا ، كما ذكر الدكتور فايز أو كما اشار المؤرخون ، الى الحركة الصهيونية نجد انها اجابة علمانية لمشكلة تواجد بعض الناس في اوروبة عاصروا التغير الذي حدث في اوروبة نفسها ، لكنهم في اجابتهم على هذه المشكلة ارتكزوا الى الركيزة اليهودية. فبأمكاني ان أقول ان هنالك شيئا من المفارقة anachronism في التسمية دائما ، اذ ان الحركة الصهيونية هي الاجابة في اطار مجتمع علماني اوروبي كما ارادت الجماعة التي تزعمت هذه الحركة ان تعطي اجابة علمانية كالاجابة التي قدمها المجتمع الالماني مثلا ، في اطار التمزق الالماني او في اطار تفرقة المجتمع الايطالي والمجتمعات الاوروبية الاخرى . يبدو لي ان هذا البعد النظري مهم جدا لانه بامكان هذا التحليل ان يؤدي بنا الى تحليل اخر من حيث الولاء الطبقي للجماعات التي ايدت الحركات الصهيونية . والغرض من هذا ، بالاضافة الى الرغبة العلمية في تفهم هذه الحركة ، اننا نريد ان ننظر الى الحركة الصهيونية من منظار اكثر تعقيدا من الذي جرينا وراءه ، سابقا وحديثا .

بالنسبة للحركة الصهيونية لدينا نظرة مبسطة : عندنا مشكلة والاجابة عليها سهلة ، فأما ان تكون حركة تآمرية لاقصاء بعض الطبقات في مجتمع بورجوازي معرض لثورات ، واما ان تكون رد فعل لرفض البورجوازية الاوروبية الخ ... كل هذه الاجابات في نظري اجابات مبسطة وينتج عن هذه الاجابات المبسطة استراتيجيات مبسطة لمواجهتها. لو نظرنا الى الحركة الصهيونية بأنها حركة معقدة تستند الى الدين تارة ، والى القومية تارة اخرى والى الصراع الطبقي والى الاضطهاد ، والى الكبت وهي بآن واحد متعددة الالسن متعددة المفاهيم وهي نفسها غير واضحة في ركائزها وفي مفاهيمها وفي سياساتها . تتطلب هذه الحقائق مواجهتها باستراتيجية معقدة، اذ بدل ان نفترض ان هناك مجتمعا يتكلم بلسان واحد ويمارس سياسة واحدة وبالتالي يجابه بسياسة واحدة ثابتة ، كان علينا ان نفترض ان هناك فئات صهيونية كثيرة تتكلم بمنطق يخالف المنطق الاخر ، تتبنى سياسات متغيرة ومعقدة ، وبالتالي وجب علينا مواجهتها بسياسات تساويها بالتغير والتكيف والتعقيد . هذا من النواحي النظرية ، اما من الناحية العملية فقد اراد الدكتور فايز صايغ ان يميز الاستيطان الصهيوني في فلسطين وكأنه نتج عن بصر صهيوني اوروبي معاصر لحركات استيطان اخرى ، واعتقد ان في هذا الكثير من الصحة . ولكن في آن واحد لو نظرنا الى ممارسات الحركات الصهيونية في فلسطين فسنجد ان الحركة الصهيونية نفسها لم تكن واضحة بالنسبة لما تريد اقامته في هذا المجتمع سواء من الناحية السياسية او الاقتصادية او الاجتماعية اي شكل المجتمع الذي تريد ان تحققه ، وارتباط هذا المجتمع بالفئات التي تؤيده عالميا سواء الفئات